الحياة اللّيتورجيَّة لكنيسة الإسكندرية[1]

(١)

مُقدِّمة:

"التاريخ اللَّيتورجي لكنيسة الإسكندريَّة"، هو علمٌ كنسي جديد، لم يكن معروفًا في الكنيسة القبطيَّة من قبل، كمنهجٍ مُتكامل، يُغطِّي ألفَين من السِّنين، هو عُمر كنيسة الإسكندريَّة، منذ تأسيسها على يدَي القدِّيس مرقس الرَّسول.

ومن هذا العدد سنُقدِّم سلسلة مقالات في دراسة هذا التاريخ اللّيتورجي لكنيستنا القبطيَّة عَبْر القرون. وفي الحقيقة، إنَّ هذا التاريخ هو الباب الذي به نستطيع أن نفهم ونستوعب كثيرًا من المُمارسات في كنيستنا القبطية اليوم. وبدون استيعاب هذه الجذور الممتدَّة في التاريخ إلى بواكير الحياة المسيحية فيها؛ سيصعب علينا فهم ما يحويه هذا البناء الشامخ الذي تأسس على أساس الرُّسُل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية فيها.

وبدراسة التاريخ اللّيتورجي لكنيسة الإسكندريّة واستيعابه جيِّدًا، تتربَّى عند المسيحي حاسة ليتورجيَّة قويَّة يستطيع من خلالها أن يُفرز ويُميِّز الصَّحيح فقط، مِمَّا قد يُستجدُّ عليها من تطورات وإضافات في زماننا الحاضر.

وأخيرًا نقول: إن المُمارسات اللّيتورجية للكنيسة تُركِّز أساسًا على مضمونها الغني، أكثر من كونها شرحًا للحركات الطَّقسيَّة في حدِّ ذاتها.

القرن الأول الميلادي

عمومًا يكتنفُ التاريخ المُبكِّر للكنيسة المسيحيَّة في مصر في القرنين الأول والثَّاني للميلاد، غموضٌ شديد، لا تنقشع غمامته إلَّا مع بداية القرن الثالث. فليس هناك أي برديَّات تعود للقرن الأول، ولعلَّ السبب في ذلك أن مؤمني كنيسة الإسكندرية - وكانوا من اليهود المستوطنين فيها - كان من العسير أن تمتدَّ كرازتهم بالمسيح خارج وسطهم

(١) هذه المقالة، وما ستتبعها، هي من كتاب: "موجز التاريخ اللّيتورجي لكنيسة الإسكندريَّة"، للأب أثناسيوس المقاري. وهو من جزئين، الأول: "العشرة قرون الأولى"، والثاني: "من القرن الـ ١١ حتى منتصف القرن الـ ٢٠ للميلاد". وهذا الموجز هو بمثابة تلخيص لِمَا يزيد عن خمسة وأربعين كتابًا، وهي مجموعة كتب: "الدُّرَّة الطَّقسية للكنيسة القبطيَّة بين الكنائس الشرقيَّة". حيث اقتصر هذا الموجز على ما يختص بالحياة اللَّيتورجية لكنيسة الإسكندريَّة فحسب. وقد صدر الكتابان سنة ٢٠١٨م.

اليهودي بسبب بُغضة اليونانيين لهم. إذ كان الوثنيون يرون اليهود كأعداء للجنس البشري. وكانت قد حدثت مُصادمات كُبرى بين اليهود واليونانيين في مصر، وفي الإسكندريَّة بالتحديد. لذا فإن المسيحيَّة التي وصلت للإسكندريَّة، كان يُنظر إليها كشيعة يهوديَّة مُتطرفة.

كنيسة أورشليم هي أقدم مصدر ليتورجي للكنيسة المسيحية في مصر:

نعلم أنَّ القديس مرقس كان مُعاصرًا لنشأة كنيسة الإسكندرية، وكنيسة أورشليم برئاسة القديس يعقوب الرسول، فنقل عنها الكثير إلى كنيسة الإسكندرية. وهذا هو السبب لِمَا نراه من توافُق يصل إلى حدِّ التطابُق في بعض نواحي الحياة الّليتورجية للكنيستين.

ومن جهةٍ أخرى، كان ليهود الإسكندرية والقيروان مجمع خاص بهم في أورشليم (انظر: أع ٦: ٩). وعندما آمن بعض اليهود بالمسيحية، لم يكن من السهل أن تنقطع الصلة بين عوائدهم اليهودية القديمة وديانتهم الجديدة. بل كانت كنيسة الإسكندرية هي الحارس الأمين لكثير من الطقوس القديمة لكنيسة أورشليم، وحتى اليوم.

المسيحية المُبكِّرة في مصر كانت يهوديَّة الأصل:

ارتبطت المسيحية المُبكِّرة في مصر باليهوديَّة، لأن البشارة التي وصلت إلى مصر كانت ذات ميول يهودية، أي من اليهود الذين قبلوا المسيحيَّة، أكثر من كونها تميل لتعاليم الرسول بولس. وطبقًا لسِفْر الأعمال (٢: ٤)، فإن المسيحيين من أصل يهودي، كانوا يعيشون في مصر في تاريخٍ مُبكِّر جدًّا. وعندما أسَّس مار مرقس كنيسة الإسكندرية، ظلَّ أوَّل ستة أساقفة للكنيسة من اليهود.

بعض الملامح الّليتورجيّة في القرن الأوَّل الميلادي:

أهم مصدر لدينا هو كتاب "الديداخي، أي تعليم الرسل"، وهو من مؤلَّفات نهاية القرن الأول الميلادي، ويحوي أقدم الإشارات الّليتورجية للكنيسة بعد الأسفار المقدسة. وهذه موجز لها:

+ **"الاعتراف العلني في الكنيسة لاستحقاق التناول من جسد الرب ودمه"**، وهو الاعتراف الذي عُرف في الكنيسة منذ نشأتها. فنقرأ: "اعترف بزلَّاتك في الكنيسة، ولا تقرب صلاتك بضميرٍ شرير. عند اجتماعكم يوم الرب، اكسروا الخبز، واشكروا، بعد أن تكونوا قد اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة".

+ **"الصوم"**، نقرأ عن الصوم وأهميته، ولكن بدون أيَّة تحديدات تختص به، ويوصي تجنُّب ما ذُبح للأوثان. وهناك أقدم إشارة على الإطلاق عن صوم يومَي الأربعاء والجمعة.

+ **"المعمودية"**، تُشير (الديداخي) بوضوح أن معمودية الماء والروح كانت تُمارَس منذ البداية باسم الثالوث الأقدس، وكان يسبقها صوم يومًا أو يومين. وكانت تُمارَس بمشهدٍ من آخرين. وإن لم يكن هناك ماء جارٍ، فيمكن بماء آخر. وإن لم يمكن بماء بارد، فبماء ساخن. وإن لم يكن لديك كلاهما، فاسكب ماءً على الرأس ثلاث مرات، باسم الآب والابن والروح القدس.

+ **"نظام الصلوات اليومية في الكنيسة الناشئة"**، إنه كان ترديد الصلاة الربِّيَّة ثلاث مرات في اليوم.

+ **"إقامة الإفخارستيا في الكنيسة في يوم الرب"**، توصي بألَّا يأكل أو يشرب أحدٌ من الإفخارستيا غير المعتمدين باسم الرب، حسب قوله: «لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَبِ» (مت ٧: ٦). "وعند اجتماعكم يوم الرب، اكسروا الخبز، واشكروا، بعد أن تكونوا قد اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة. لا يجتمع معكم كلُّ مَن له مُنازعة مع صاحبه، حتى يتصالحا، لئلا تتنجَّس ذبيحتكم".

+ **"وجود أساقفة وشمامسة، ولكن لا ذِكْر للقسوس"**، توصي بأن يُقيموا رجالًا وُدعاء، غير مُحبِّين للمال، صادقين، قد اختُبروا، فهم يخدمون خدمة الأنبياء والمُعلِّمين.

والسؤال هنا: كيف استطاعت تلك الكنيسة الغضَّة النَّاشئة، أن تصمد أمام أعظم مدرسة فلسفيَّة وثنيَّة؟ بل وأمام فلسفات مسيحيَّة عاتية، كالغنوسيَّة وغيرها؟ بل وأمام معابد وهياكل وثنيَّة، رعت دين أجداد، امتدَّت جذوره إلى خمسة آلاف سنة خلت؟

القرن الثاني الميلادي

بداية تحرُّر كنيسة الإسكندريَّة من القيود والعوائد اليهوديَّة:

هذا القرن يمكن تقسيمه لمرحلتين، **الأولى**: حين عاش المسيحيون الأوائل في مدينة الإسكندرية من أصل يهودي جنبًا إلى جنب مع اليهود الذين سكنوا ذات المناطق في المدينة، وكانوا يُشاركونهم الحياة في المجمع اليهودي إلى جانب عبادتهم الجديدة في الكنائس التي أنشأوها في البداية في بيوتهم.

ولكن مع أوائل القرن الثاني الميلادي، بدأ المسيحيون يظهرون كجماعةٍ مختلفة ومُتميِّزة عن المجتمع اليهودي. هذا الانفصال بين المجمع اليهودي والكنيسة تمَّ بشكله النهائي بعد ثورة اليهود سنة ١١٧م، والتي جرت أيام حكم الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م).

المرحلة الثانية: هي المحصورة ما بين سنة ١١٧ وسنة ١٨٠م، حين قلَّ الارتباط

الوثيق الذي كان قائمًا بين كنيسة الإسكندريَّة، من جهةٍ؛ وكنيسة أورشليم وكنيسة سوريا، من جهةٍ أخرى، في مقابل ازدياد هذا الرباط بين كنيسة الإسكندريَّة وكنيسة روما.

بعض مظاهر التحرُّر من القيود اليهودية في كنيسة الإسكندريَّة:

+ هناك تشابُه قريب جدًّا بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة روما. وظهرت رسائل متبادلة بين الكنيستين بانتظام، بخصوص عيد الفصح.

+ ظهرت "مدرسة الإسكندريَّة اللاهوتيَّة"، وكان العلَّامة أثيناغوراس هو أول مدير لها، ومن بعده العلَّامة بنتينوس. وبفضل هذه المدرسة، صارت الكنيسة أكثر تنظيمًا ونشاطًا رعويًّا وكرازيًّا. فانطلقت تُبشِّر بين المصريين في الريف والقرى والنجوع، مع ظهور اللغة القبطيَّة كلغةٍ شعبيَّة.

آثار المسيحيين الأوائل من أصل يهودي على كنيسة الإسكندريَّة:

+ يُعدُّ "فيلو" أحد أهم الشخصيَّات المُعتَبَرة في الجالية اليهوديَّة بالإسكندريَّة. وكان يتميَّز بأسلوبه الرَّمزي في تفسير الكُتُب المقدَّسة، والبحث عن المعاني المُختبئة وراء الكلمات. وقد انتشر هذا الفكر في كل أنحاء العالم المسيحي، لا سيما في كنيسة الإسكندريَّة، وذلك عَبْر العلَّامة كليمندس الإسكندري، ومن بعده العلَّامة أوريجانوس.

+ الترجمة السبعينيَّة هي الترجمة التي نقلت عنها الترجمة القبطية، ولقد ثبَتَت كنيسة الإسكندريَّة على ما تسلَّمته من الكنيسة الرسوليَّة الأولى، باعتبارها هي الكتاب الرسمي للعهد القديم.

مشكلة تحديد يوم عيد الفصح

في منتصف القرن الثاني الميلادي، أُثيرت مشكلة تحديد يوم عيد الفصح، وهل يكون في اليوم الرابع عشر القمري؟ وتزعَّم هذا الرأي أساقفة آسيا. أو يكون في يوم الأحد؟ وهو ما كانت تُمارسه فعلًا كنيسة الإسكندريَّة مع بقية الكنائس. وبناء على طلب من مجمع عُقد في فلسطين، أرسلت كنيسة الإسكندريَّة ردًّا إلى المجمع يُفيد بزمان وطريقة الاحتفال بالفصح.

(يتبع)